

منهج التأويل عند المدارس الكلامية – عرض ودراسة-

م.م فاطمة عبد رهيف

أ.د احمد خلف جراد / مشرف اول /

مشرف ثاني أ.م.د احمد هاشم سالم الجامعة العراقية / كلية العلوم الاسلامية / قسم العقيدة

المبحث الأول نظرية التأويل عند المتقدمين

توطئة: لقد كان التأويل في سياق المدارس الكلامية ينحصر في وجوب الاستدلال على الله جل شأنه بالنقل والعقل معاً، وعلى قدر من التفاوت بين من يجعل العقل ضرورة للتسليم إلى النص أو في استقلاله المطلقة أو من عد العدول من الحقيقة إلى التأويل من غير دليل صحيح وحجة قطعية مجرد افتراء، لأنه مدعاة للظن ولكن سعة الإطلاع وغريزة الفحص في كل ما توصل إليه القدامى يحتاج في نظر المعرفة المتأخرة إلى ثبوت الحقيقة بطرق مصاديق البرهان في مقابل الحقيقة المدركة بالنص والمطابقة للعقل، ومن هنا أصبح علم الكلام يطلب الجواب عن أسئلة متعلقة بالتأويل من الفلسفة (١).

المطلب الأول: المعتزلة

مدرسة كلامية وتُعد من أقدم المدارس الفكرية التي ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة والتي كانت في ذلك العصر مجعماً للعلم والأدب في البلاد الإسلامية العربية، وكما تُعد المعتزلة من أهم الفرق الكلامية، وقد اختلفت الآراء حول نشأة المعتزلة، فقد ذهب زهدي جار الله (٢) بقوله: " إن قيام المعتزلة كان في بداية القرن الثاني الهجري في سنة محصورة بين (١١٠-١١٠هـ) (٣)، وتميزت المعتزلة بثرائها الفكري والعلمي، ويرجع سبب التسمية بالمعتزلة حسب تصور المؤرخين إلى اعتزال واصل بن عطاء (٤) عن شيخه الحسن البصري (٥) في مسائل عقديّة كانت تدور في مجالس العلماء (٦). ومن الواضح أن المعتزلة تجعل من التأويل هدفها الأساس في فهم النصوص الدينية، فقد اعتمدوا منذ البداية على اللغة والعقل، فالاستدلال العقلي يعتمد على التحليل والتفسير للنص اللغوي وبخاصة النص القرآني، وكانت استنتاجاتهم تحتاج دائماً إلى الكشف والاستنباط والغور في الظواهر اللغوية من قبيل المجاز والتأويل فقد اعتمدوا من البداية على العقل (٧) وكما حاول المعتزلة أن يطوروا علاقة المحكم والمتشابه لفائدة المتشابه في سبيل التخلّص من كلّ سوء للفهم حفّ به، وذلك بجعله يتوجّه بالكامل توجيهاً تأويلياً، فيصبح الدفاع عن المتشابه دفاعاً عن المجاز في اللغة، ومكمناً من مكامن إعجاز القرآن (٨)، وبالطبع فإن اللجوء الى التأويل المجازي كثير لدى المعتزلة وخاصة فيما يتعلق بالصفات التي تدل على الحركة، والمكان وما اشبهه، فعلى سبيل المثال يفسّر الزمخشري (٩) صفة (واسع)، بانها تعني واسع الرحمة، وصفة (قريب) بانها سريع الاستجابة، وهكذا مع جميع صفات الأفعال (١٠) فقد انصب تأويل المعتزلة أساساً على الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله والمشيئة (١١) والقضاء والقدر (١٢)، فقد حاولوا تنزيه صفات الله تعالى من الاتصاف بصفات المخلوقات، إذ بلغت أفكار المعتزلة في التوحيد وتصوراتهم للذات الإلهية قدراً عالياً من التجريد والتنزيه، واتسعت دفاعاتهم عن هذا الأصل بتنوع براهينهم العقلية والحجج الجدلية العقلية والنقلية (١٣) ولا خلاف بين المعتزلة على حدوث الكلام الإلهي وأن القرآن مخلوق محدث لم يكن ثم كان وانه غير الله تعالى؛ ويمكن الإشارة هنا الى أن فكرة حدوث الكلام الإلهي وخلق القرآن لدى المعتزلة قد نشأت كنتيجة مترتبة على البحث في صفات الله والقول بنفيها، والقول بأن صفات الذات هي عين الذات أما صفات الأفعال فهي مخلوقة أو حادثه وجعل الكلام من هذا الضرب الأخير (١٤)، والظاهر ان عقائد المعتزلة في الصفات غير ثابتة وليس لها حد تقف عنده، فهم تارة ينفون الصفات دون الأسماء، وأخرى يثبتون بعض الأسماء وبعض الصفات، وينفون بعضها الآخر، ويستثنون الصفات الاختيارية التي تتعلق بذاته بمشيئته وقدرته جل وعلا، مثل كلامه وسمعه وبصره ورحمته وغضبه وعدله واستوائه ومجيئه، فالمعتزلة إما يؤولونها أو يثبتونها على انها أزلية خوفاً من حلول الحوادث بذات الله تعالى، أو يجعلونها من صفات الفعل المنفصلة عن الله تعالى؛ واما حجّتهم في نفي الصفات فان التقديم لا يكون محلاً للصفات والحركات فلا يكون جسماً ولا حيزاً لأن الصفات أعراض؛ وهم يستدلون على حدوث الجسم بحدوث الأعراض والحركات، والجسم لا يخلو منها وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث (١٥)

، ولهذا قالوا أن من أثبت الصفات يُعدُّ مجسماً لأن الصفات عند المعتزلة لا تقوم إلا بجسم، والجسم مركب من الجواهر المفردة (١٦) والمعتزلة تتفق على نفي إثبات الصفات حقيقةً في الذات وسلوكوا في ذلك طريقتين، الطريق الأول: وهو قول الأغلب إذ نفوها صراحة وقالوا ان الله تعالى عالم بذاته لا بعلم، وهكذا في باقي الصفات، والطريق الثاني إثبات الصفات اسماً ونفياً فعلاً، فقالوا أن الله عالم وعلمه ذاته وهكذا في باقي الصفات، والمقصود بنفي الصفات أي نفي أثباتها حقيقة، إذ يجعلون الصفة عين الذات، فالله عالم بذاته بدون علم، أو الله عالم بعلم وعلمه ذاته (١٧).

المطلب الثاني: الأشاعرة

ويُنسب اتجاه خاص في علم الكلام إلى أبي الحسن الأشعري ويُعرف بالمذهب الأشعري، وهذا المذهب قائم على محاولة إيجاد طريق في العقيدة يجمع بين مذهب السلف في الوقوف على حد النص، ومذهب أهل العقل من علماء الكلام وهم رجال الاعتزال أو رجال التأويل، وقد تأسس المذهب فعلياً في حدود عام ٣٠٠ هجري في البصرة عندما بلغ المؤسس الأربعين من عمره (١٨) فقد شهدت الفترة الأخيرة من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري؛ والنصف الأول من القرن الرابع الهجري أحداثاً فكرية هامة في الدولة الإسلامية، تمثلت بازدهار العلوم الإسلامية وكما اتسمت بحرية الفكر واصبح كل ذي رأي يعلن رأيه، وقد كان أبو الحسن الأشعري من أهل البصرة وكان معتزلياً تتلمذ على يد أبو علي الجبائي (١٩) لكنه رجع الى مذهب أهل الأثر، فقد تلقى علوم القرآن والحديث منذ ولادته وتفتحت مداركه على مذهب أهل الأثر الذي كان المذهب الرسمي لوالده، وبعد ان اقام على الاعتزال دهرًا من الدهر ليس بالقصير وكان اماماً للمعتزلة بلغ في الجدل والمناظرة، إلا ان المصادر تحكي عن ثلاثة أحداث في تحول الأشعري عن مذهب المعتزلة، منها: مناظرته مع الجبائي، وأنه رأى النبي (ﷺ) في المنام فأمره بالرجوع الى الحق ونصرته، واعتكاف الأشعري في بيته ثم إعلانه التحول (٢٠)، وقد انتشر المذهب الأشعري والذي ينسب الى أبي الحسن الأشعري بفضل تلاميذه وجماعة من كبار اتباعه (٢١) وقد أشار الأشعري إلى إثبات وجود الله بالمدرجات العقلية ومصادر الدين المعتمدة حين رد على من يبحث في الاستدلال على كيفية صنع الخلق معتبراً الدليل على ذلك أن الإنسان هو في غاية الكمال والتمام إذا فكر في خلقته من شيء ابتداء وكيف دار في أطوار الخلقة كوراً بعد كور، حتى وصل إلى كمال الخلقة وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدير خلقته ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقيه من نقص إلى كمال فعرف بالضرورة أن له صانعاً، قادراً، عالماً، مريداً، إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار في النظرة وتبين آثار الأحكام والإتقان في الخلق فله صفات (٢٢) دلت أفعاله عليها لا يمكن جدها، وكما دلت الأفعال على كونه عالماً، قادراً، مريداً، دلت على العلم والقدرة والإرادة، لأن وجه الدلالة لا يختلف شاهداً وغائباً (٢٣) بمعنى أن الاستدلال بالنظر والتدبر والفكر يؤدي بصاحبه حتماً إلى معرفة ذات الحق بموجب ما فيه من آيات كونية تدل على موجودها، وإذا ثبت ذلك في ذهن المؤمن أمكن أن نسميه عبادة الله بطريق صيغة البرهان العقلي والنقلي المستمد من آيات الله وشواهد ودلائله المنظمة في أرجاء الكون، والتي تدل على قوة حكيمة أوجدتها وتتحكم في تسييرها (٢٤) وأما اهم ما ركز عليه الأشعرية هو مسألة إثبات صفات الله تعالى المختصة به والتي تميزه عن مخلوقاته، وهي معان زائدة على الذات ولازمة لها، ومعنى ذلك أنها قديمة بقدمه، غير أن الأشاعرة سلخوا طريقاً آخر لإثبات صفاته تعالى بوصفه العلة الموجدة للكون، وفي إثبات هذه الصفات واعتبار التأويل جزءاً من إمكان معرفة الله عز وجل بالعقل، أملاً في التوصل إلى حل مقنع يتماشى مع توحيد الذات وتوحيد الأفعال لذاته جل وعلا، معتبرين أن صفاته مغايرة لذاته وأنها جميعاً قديمة مثل ذاته تعالى أي أن ما كان صفة له عز وجل لا يكون إلا قديماً (٢٥) فكل من تجاوز هذا إلى تأويل آخر فهو معطل (٢٦) وقد افترض في النفي حتى قال ان الله ليس بشيء، أو مشبه (٢٧) وقد افترض في الأثبات حتى جعل الله تعالى مثل خلقه، وهو ما تحاشته الأشاعرة فيما يجب له سبحانه وتعالى من الصفات التي أثبتتها النقل والعقل، إذ ليس في ذاته تعدد جهة ولا تغاير حيثية ولا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً، وهو ما ذكره الأشعري في كتابه اللمع، مستشهداً على ذلك بالبرهان العقلي وبالادلة السمعية؛ لأنه لو أشبهها لم يخل من أن يشبهها من كل الجهات أو من بعضها، فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثاً مثلها من جميع الجهات، وإن أشبهها من بعضها كان محدثاً من حيث أشبهها ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديماً (٢٨) وكما أن البحث في الصفات الإلهية يُعد من أصول الأشعرية؛ لأنه يتعلق بما يجب لله عز وجل من حيث صدق الظواهر دون الاستفسار عن كيفية هذا المصدق وهذا ما فسّر قول الأشعري (بلا كيف) حفاظاً على تنزيه الله وعلى ما ورد في القرآن نصاً، وأما الجويني فإنه يجاوز ذلك؛ فهو يقسم الصفات إلى نفسية ومعنوية وكما ورد في قوله: "وأما صفة النفس في حقيقتها، فكل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت النفس غير معللة بعلة قائمة في الموصوف، والصفات المعنوية هي الأحكام الثابتة للموصوف بها، وهي معللة بعلة قائمة بالموصوف" (٢٩) وقد ثبت الأشاعرة لله تعالى الصفات الذاتية، وهي الصفات التي لا يجوز ان يوصف الله تعالى بظواهرها، وهي سبع صفات، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وهي صفات توقيفية فلا تُثبت لله تعالى إلا ما دلّ الكتاب والسنة

على ثبوته، وهي صفات تعني كل مقتضيات وجود الكمال الإلهي، وبما هي كذلك فهي صفات وجودية من حيث كون الثبوت يعني الوجود، وهي صفات أزلية قديمة؛ أي ليست حادثاً لأنه تعالى واجب الوجود لا تقوم الحوادث بذاته، وهي صفات قائمة بذاته أي ليست قائمة بذاتها؛ فليس لها وجود خارجي مستقل، وهي غير الذات ولا عين الذات ولكنها زائدة على الذات، أي ان كل من الذات المقدسة وصفاتها لا يتصور انفكاك احدهما عن الآخر من حيث الوجود^(٣٠)، وفي ذلك يقول الأشعري: "الباري تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وهذه صفات أزلية قائمة بذاته، لا يقال هي هو، ولا غيره، ولا لا هو، ولا لا غيره"^(٣١) كما اثبتوا الصفات الفعلية وهي التي يجوز أن يوصف الله تعالى بضعدها؛ لأن الضد ليس بفعل، فيجب بنفي الفعل عن الفاعل وجود ضده، وهي مشتقة من أفعاله تعالى كالخلق والرزق والعدل، فهذه الصفات هي أفعال الله تعالى، وهي محدثات من صفات أفعاله، ولم يكن موصوفاً بها قبل وجود أفعاله^(٣٢) والحقيقة كما يرى الأشاعرة أن الله تعالى متصف بكل كمال إلهي ومنتزه عن كل نقصان، وأن كل ما يدخل في الأعيان من الحواس لا يمكن أن ندرجها ضمن سياق صفات الله عز وجل، وإلا كان ذلك تحت طائلة التشبيه أو تحت شيء من لوازمه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) فهو منزّه عن الاتصاف بشيء منه، أي أن جميع صفات الله قديمة فالله تعالى خالق قبل أن يخلق، ورازق قبل أن يرزق، فالصفة شيء وآثار الصفة شيء آخر، وقد خلط من جعل فعل الصفة أي (أثرها) عين الصفة؛ لأن فعل الصفة من الأحياء والإماتة والإيجاد وغير ذلك حادث لها تعلق صلوحى قديم، أي لها تعلق بالصفة القائمة بذات الله تعالى أزلاً وجميع ما ورد من الأخبار الإضافية الموهمة للتشبيه تعود إلى الصفات القديمة المحكم معناها، فاليد تعود إلى صفة القدرة، والقدرة أصل لكثير من النوعات الإلهية كالإيجاد، والنصرة، والرزق، والكرم، فكلها بقدرة الله تعالى، والعين تعود إلى صفة العلم والبصر^(٣٣).

المطلب الثالث: الشيعة الإمامية

الشيعة فرقة من الفرق الإسلامية، وقد تطورت هذه الفرقة وانقسمت إلى فرق عديدة من أبرزها وأهمها الإمامية، وترى الشيعة أن سيدنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو الإمام بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وتذهب إلى أن النبي نص على علي بن أبي طالب بالإمامة ودل على وجوب فرض طاعته ولزومها لكل مكلف^(٣٤) والإمامة اسم يطلق على الشيعة التي تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتي نصاً لكل إمام من أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، ولكن خُص فيما بعد عند جمع من المؤلفين وغيرهم بالاثني عشرية، ولعل من أول من ذهب إلى ذلك من الشيعة الشيخ المفيد^(٣٥) في كتابه أوائل المقالات^(٣٦)، وأشار صاحب مختصر التحفة الاثني عشرية إلى أن الاثني عشرية هي المتبادرة عند إطلاق لفظ الإمامية^(٣٧)، ويطلق كاشف الغطاء^(٣٨) لقب الإمامية على الاثني عشرية أيضاً^(٣٩)، ولعل أول من أشار إلى مسألة استيعاب الاثني عشرية لعقائد الفرق الأخرى من المعاصرين الدكتور كامل مصطفى الشبيبي؛ إذ يقول: "ولكن يجب ان نشير قبل ان نضع القلم بأن ما مر بنا من أفكار الشيعة مما كان خاصاً بفرقة بعينها لم يلبث أن دخل كله في التشيع الاثني عشري ودعم بالحجج العقلية وبالنصوص، والتشيع الحالي إنما هو زبدة الحركات الشيعية كلها من عمار إلى حجر بن عدي، إلى المختار وكيسان، إلى محمد ابن الحنفية وأبي هاشم، إلى بيان بن سمعان، والكوفيين، إلى أنصار عبد الله بن الحارث إلى الزيديين والإسماعيليين، ثم الإمامية التي صارت اثني عشرية، وقام بعملية المزج متكلمو الشيعة ومصنفوها"^(٤٠) ويعتقد الشيعة الإمامية ان الله تعالى موصوف بكل صفات الكمال؛ وان العقل والوحي معاً يدلان على وجود هذه الكمالات في الذات الإلهية المقدسة، وعلى هذا الاساس فإن الله عالم وقادر، وحي، وسميع، وبصير، وهذه الصفات تتفاوت فيما بينها من حيث المفهوم، فما نفهمه من لفظة عالم غير ما نفهمه من لفظة قادر. والنقطة الجديرة بالبحث ان هذه الصفات متغايرة من حيث المفهوم، فهل هي في الواقع الخارجي متغايرة أم متحدة؟ ترى الإمامية أن تغييرها في الوجود والواقع الخارجي يستلزم الكثرة والتركيب في الذات الإلهية المقدسة، لهذا فإن صفات الله عين ذاته أي ليس لهذه الصفات وجود إلا وجود الذات، وإن هذه الصفات مع كونها مختلفة ومتغايرة من حيث المعنى والمفهوم إلا انها في مرحلة العينية الخارجية والواقع الخارجي متحدة، وانها تشير الى مصداق ووجود واحد وهو الذات الإلهية^(٤١)، يقول جعفر الصادق (عليه السلام): "لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور"^(٤٢) ويتعبير آخر، إن الذات الإلهية في عين بساطتها واجدة لجميع هذه الكمالات لا أن بعض الذات الإلهية (علم) وبعضها الآخر (قدرة) وبعضها (حياة) بل هو سبحانه كما يقول المحققون علم كله وقدرة كله وحياة كله، وعلى هذا الأساس فإن الصفات الذاتية لله تعالى مع كونها قديمة وأزلية فهي عين ذاته سبحانه لا غيرها^(٤٣). ويقسم الشيعة الإمامية صفات الله تعالى إلى قسمين: الصفات الثبوتية وهي صفات الجمال والكمال، والصفات السلبية وهي صفات الجلال، فأما الصفات الثبوتية فإن المراد منها نفي أضعادها، فإن الله تعالى كونه غنياً موصوفاً بالكمال المطلق فهو تعالى منزّه عن كل وصف يحكي النقص والحاجة والفقر، يقول محمد رضا المظفر^(٤٤): "فن صفاته تعالى الثبوتية الحقيقية الكمالية التي تسمى بصفات الجمال والكمال كالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، هي كلها عين ذاته تعالى ليست صفات زائدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات؛ فقدرتة من حيث الوجود حياته وحياته قدرته بل هو قادر من حيث هو حي،

وحي من حيث هو قادر لا أثنينية في صفاته تعالى، وهكذا الحال في سائر صفاته الكمالية، نعم هي مختلفة في معانيها ومفاهيمها لا في حقيقتها ووجوداتها^(٤٥)، وأما الصفات السلبية التي تسمى صفات الجلال فهي التي يجب سلبها عن الذات كما يرى الإمامية باعتبار أن اتصاف الذات بها يلزم منه محال من المحالات لأنها تتنافى مع وجوب الوجود، وهي صفات عدمية، ووصفها بالجلالية لأن الذات الإلهية المقدسة تجل عن الاتصاف بها لأنها تدل على نقص الموصوف بها وعجزه والله تعالى غني غني مطلقاً ومنزه عن كل نقص وعيب^(٤٦) وتعود الصفات السلبية التي تسمى بصفات الجلال إلى سلب واحد هو سلب الإمكان عنه تعالى، فإن سلب الإمكان لازمة بل معناه سلب الجسمية، والصورة، والحركة، والسكون، والنقل والخفة بل سلب كل نقص، ثم أن مرجع سلب الإمكان في الحقيقة إلى وجوب الوجود، ووجوب الوجود من الصفات الثبوتية الكمالية، فترجع الصفات الجلالية (السلبية) آخر الأمر إلى صفات الكمالية (الثبوتية) والله تعالى واحد من جميع الجهات لا تكثر في ذاته المقدسة ولا تركيب في حقيقة الواحد الصمد^(٤٧)، يقول الإمام علي (عليه السلام): "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصفه سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله^(٤٨) إذن التأويل عند الشيعة الإمامية يعني تفسير النصوص الدينية، فالقرآن الكريم يحتوي على معاني ظاهرة ومعاني باطنة، وإن المعاني الظاهرة هي التي تحتاج إلى تأويل، وإن منهج الشيعة الإمامية هو تأويل هذه الظواهر وصرفها عن معانيها الظاهرة المتبادرة إلى الأذهان للوهلة الأولى، فهي آيات متشابهة تفسر على ضوء المحكمات، إذ العمل بالمتشابهات وفصلها عن المحكمات انحراف وزيف وضلال، وتسمى الصفات الخبرية أو الإضافية، وهو ما أثبتته ظواهر الآيات له سبحانه من العلو والوجه واليدين والعين، وليست كل إضافة صفة لله تعالى فتأويلهم قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾^(٤٩)، أي بقوة، وقوله: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٥٠)، أي بقوة، وقوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾^(٥١)، أي قواهم، ويُقال لفلان عندي أياد كثيرة أي فواضل وإحساناً، وله عندي يد بيضاء أي نعمة^(٥٢) فمن الضروري عند الإمامية اتباعاً لما في الكتاب والسنة وأن الله تعالى لا يوصف بصفة الأجسام والحوادث ولا ينعى بنعوت الممكنات مما يقضي بالحدوث ويلزم الفقر والحاجة والنقص، قال تعالى ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٥٣)، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٥٤)، إلى غير ذلك من الآيات وهي آيات محكمات ترجع إليها متشابهات القرآن، فما ورد من الآيات ظاهرها إسناد شيء من الصفات أو الأفعال الحادثة إليه تعالى ينبغي أن يرجع فيها إلى المحكمات وتؤول بشكل لا ينافي صفاته العليا واسمائه الحسنى، فالآيات المشتملة على المجيء أو الإتيان أو الرؤية أو الغضب أو وجود اليد والعين تؤول بشكل يلزم قدسه تقدست أسماؤه^(٥٥) وقد ذهب أكثر علماء الإمامية ان للقرآن مرجعاً أصلياً ثابتاً في أم الكتاب لا يتغير ولا يتبدل، والتأويل ينطلق من هذه الحقيقة، يقول صاحب كتاب الشيعة في الاسلام: إن القرآن كله له تأويل^(٥٦)، وليس فقط الآيات المخبرة عن الصفات وبعض الأفعال المشهودة يوم القيامة وإنه لا يختص بآيات دون أخرى وإنما هو للقرآن كله، فإن القرآن الثابت في اللوح المحفوظ يمثل حقيقة القرآن الأصلية، فهو يتضمن واقع الأحكام الشرعية وواقع التعليمات والمواظب والإرشادات^(٥٧).

هوامش البحث

- (١) ينظر: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، حسين مروة، دار الفارابي للطباعة والنشر، بيروت، ج ١، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٦٤
- (٢) زهدي حسن جار الله، مؤلف ومترجم فلسطيني، ولد في القدس سنة ١٩١٤، وله العديد من المؤلفات في الفكر والثقافة والسياسة والأدب، توفي سنة ١٩٧٤. ينظر: موسوعة الثقافة الفلسطينية قبل النكبة، عطف أبو سيف، وزارة الثقافة، فلسطين، ج ١، ط ١، ٢٠٢٢، ص ٢١١.
- (٣) المعتزلة، زهدي جار الله، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٧٤م، ص ١٢.
- (٤) واصل بن عطاء ابو حذيفة المخزومي، متكلم ومفكر عربي اسلامي وهو مؤسس المدرسة الاعتزالية، ولد سنة ٨٠ هـ في المدينة المنورة، وقد عارض معلمه الحسن البصري بصدد مسألة الكبائر فعلق هذا على افتراقه عنه بقوله (اعتزل عنا) توفي في مدينة البصرة سنة ١٣١ هـ. ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي، ج ٥، ص ٤٦٥، ومعجم الفلاسفة، جورج طربيشي، ص ٧٢٩.
- (٥) الحسن بن ابي الحسن بن يسار البصري، وكنيته أبو سعيد، ولد سنة ٢١ هـ في المدينة المنورة، وهو إمام وقاضي ومحدث وكان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو احد العلماء الفقهاء الفصحاء، توفي سنة ١١٠ هـ. ينظر: الاعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي(ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ج ٢، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ص ٢٢٦
- (٦) ينظر: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول (ﷺ) حتى اغتيال السادات، حسن صادق، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٣٧. ومن هذه المسائل هي مسألة المنزلة بين المنزلتين، فالمعتزلة يعتقدون ان مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لانهم جعلوا الفسق

مرتبة بين الايمان والكفر وقضوا بان مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين فلا هو كافرأ مطلقا كما تقول الخوارج ولا مؤمناً مطلقا كما تقول المرجئة، فكبيرته لا تخرجه من الايمان ولا تدخله في الكفر. ينظر: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد فتاح، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط١، ١٩٦٧، ص٩٥، وحسب المؤرخين فإن المعتزلة يلقبون بالقدرية الذين قالوا بالاختيار وحرية الإرادة، فهم يرون ان النواة الأولى لمذهب المعتزلة هو إنكار القدر المطلق لله تعالى أو لتلاقي المعتزلة والقدرية في إنكار الجبر والقول بحرية الإرادة . ينظر: الأحكام في أصول الأحكام، علي الأمدي، ج٣، ص٥٢

(٧) ينظر: من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية، محمد عبد الرحمن مرحبا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٢، ١٩٨١م، ص٢٠
(٨) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، د. حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م، ص١٥٢ .
(٩) محمود بن عمر بن محمد بن عمر المكنى أبو القاسم والملقب بجار الله الزمخشري الخوارزمي النحوي، صاحب الكشف والمفصل، ولد سنة ٤٦٧ هـ في زمخر وهي بلدة بنواحي خوارزم، وكما اشارت كل التراجم انه كان معتزلي الاعتقاد، توفي سنة ٥٣٨ هـ. ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي، ج٢٠، ص١٥١ وما بعدها، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، ص٧

(١٠) ينظر: معمار الفكر المعتزلي قراءة في تاريخ الاعتزال منذ تفتحه حتى انطفائه، سعيد الغانمي، دار الرافدين للطباعة والنشر، بغداد، ط٢، ٢٠٢٣م، ص٤٥٥ .

(١١) اختلفت اقوال العلماء في المشيئة فهي عند المعتزلة من صفات الفعل وليست من صفات الذات ، والمشيئة صفة محدثة مخلوقة ، وعند الاشاعرة ارادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله واحداثه، فهو سبحانه إذا أراد شيئاً وشاءه كان عقب إرادته، وكما أن مشيئة العبد مشيئة تابعة سببية ، ومشيئة الله تعالى مشيئة تقديرية ابتدائية . ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧، ص٢١٥

(١٢) القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، وقيل الخلق ، وقيل بأن القضاء هو الحكم الكوني بجريان الأقدار، واما القدر فهو جزئيات ذلك الحكم، او هو تقدير الله تعالى للكائنات قبل حدوثها، وقيل أنهما إذا اجتمعا افترقا فيكون لكل واحد منهما مدلول، وإذا افترقا اجتمعا فيدخل أحدهما في الآخر. ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ج١، ص٥١٢

(١٣) ينظر: العقل والحرية في فكر القاضي عبد الجبار، عبد الستار الراوي، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٢٣٩

(١٤) ينظر: الفكر العربي ومركزه في التاريخ، دي لاسي أوليري، دار النهضة، بيروت، ط١، ١٩٦٢، ص٧٤

(١٥) العقل والحرية في فكر القاضي عبد الجبار، عبد الستار الراوي، ص٣٥٠

(١٦) معمار الفكر المعتزلي قراءة في تاريخ الاعتزال منذ تفتحه حتى انطفائه، سعيد الغانمي، ص١٢٢

(١٧) ينظر: : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية، محمد عبد الرحمن مرحبا، ص٢٢

(١٨) ينظر: الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد، ابو المعالي عبد الملك بن يوسف بن محمد الجويني الاشعري (ت: ٤٧٨هـ)، المحقق: محمد يوسف موسى واخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٥٠م، ص٦، ونشأة الاشعرية وتطورها، جلال محمد عبد الحميد موسى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص١٧٠، والجانب الالهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٢م، ص٢٧٤.

(١٩) أبو علي محمد بن عبد الوهاب البصري شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف، ولد سنة ٢٣٥هـ، وهو متكلم ومفسر ومن شيوخ اهل البصرة، اليه نسبة الطائفة الجبائية، كما له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب، توفي سنة ٣٠٣هـ . ينظر: سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ج١٤، ص١٨٤.

(٢٠) ينظر: في علم الكلام - دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية، بيروت، ج٢، ط٥، ٢٠٢٠، ص١٢٣

(٢١) ينظر: نشأة الاشعرية وتطورها، جلال محمد عبد الحميد موسى، ص١٧٦.

(٢٢) الصفة: وهي الشيء الذي يوجد بالموصوف او يكون له ويكسبه الوصف الذي هو النعت الذي يصدر عن الصفة، ومعنى هذا ان الصفة وجود ثابت حقيقي ؛ وهي قد توجد تارة او تعدم تارة أخرى ؛ فإذا وجدت غيرت حكم الموصوف وصيرته عند وجودها على حكم لم يكن عليه عند

- عدمها، كالعلم والجهل والقدرة والعجز، فبتغيير بها الموصوف اذا وجدت به ويكسبه حكماً لم يكن عليه . ينظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر الباقلاني، ص ٢١٣
- (٢٣) ينظر: الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن ابي بكر احمد الشهرستاني(ت: ٥٤٨هـ)، المحقق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة، ج ١، ١٩٦٨م، ص ٩٤
- (٢٤) ومما يدل على ذلك في نظر الأشعري هو نظام وجود الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام بوصفه آية ودليلاً على نظام الكون الكبير الذي يدبره الإله بتدبيره الحكيم، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال لأننا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا بقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصراً، ولا أن يخلق لنفسه جارحة، ويدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز، لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في حال الكمال عليه أقدر، وما عجز عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز، ورأينا طفلاً ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك، فدل على ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلاً نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر. ينظر: للمع في الرد على اهل الزيغ والبدع، ابو الحسن الأشعري(ت: ٣٣٠)، المحقق: حموده غرابه، مطبعة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٥م، ص ١٨
- (٢٥) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١، ص ٩٤
- (٢٦) المعطلة: او الجهمية، اسم لفرقة ظهرت أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني على يد مؤسسها جهم بن صفوان الترمذي، اشتهرت هذه الفرقة بمقالة نفي صفات الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز وصف البارئ سبحانه بصفة يوصف بها خلقه. ينظر: المختصر في الأديان والفرق، عيسى عبد الله السعدي، دار الأوراق الثقافية، جدة، ط ٢، ٢٠١٥، ص ٣٩
- (٢٧) المشبهة: او المجسمة، اسم لفرقة تطلق على من يقول بان الله عز وجل جسم، ويطلق عليهم أيضا لقب الحشوية. ينظر: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، عبد المنعم الحفني، دار الرشيد للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣، ص ٣٤٠
- (٢٨) ينظر: للمع في الرد على اهل الزيغ والبدع، ابو الحسن الأشعري، ص ٧ وما بعدها
- (٢٩) العقيدة النظامية في الاركان الاسلامية، ابو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت: ٤٧٨هـ)، المحقق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٤٤
- (٣٠) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١، ص ٢٢٢.
- (٣١) للمع في الرد على اهل الزيغ والبدع، ابو الحسن الأشعري، ص ٢٥ وما بعدها
- (٣٢) ينظر: للمع في الرد على اهل الزيغ والبدع، ابو الحسن الأشعري، ص ١٨
- (٣٣) ينظر: تصحيح المفاهيم العقديّة في الصفات الإلهية، عيسى عبد الله مانع الحميري، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ، ص ٣١ وما بعدها . وإذا كان الأشاعرة قد أفاضوا في الأدلة العقلية والنقلية الدالة على ما جوزوه تأويلاً لبعض الصفات، فإن ذلك في نظرهم لا يمكن حمله على الحقيقة بقدر ما يؤول على المجاز على نحو ما يتضح عندهم في صفاته تعالى العينية الكمالية التي تليق بذات الله تعالى. ينظر: للمع في الرد على اهل الزيغ والبدع، ابو الحسن الأشعري، ص ١٠ . وهذه النزعة الى التوفيق هي التي دفعت الأشعري(6) الى الاحتفاظ لنفسه بشيء من الاستقلال بين المذاهب في زمانه، فكان يقول : كل مجتهد مصيب وكلهم على الحق لم يختلفوا في الاصول وانما اختلفوا في الفروع . ينظر: فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية، لويس غرديه وآخرون، نقله الى العربية: صبحي الصالح وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ج ١، ص ٩٧
- (٣٤) ينظر: الشافي في الامامة، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي(ت: ٤٣٦ هـ)، المحقق: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ج ٢، ١٩٨٦م، ص ٦٥
- (٣٥) محمد بن محمد بن نعمان بن عبد السلام المشهور بالشيخ المفيد، ولد سنة ٣٣٦ هـ في بغداد، وهو من متكلمي وفقهاء الامامية في القرنين الرابع والخامس الهجري، وقد آلت اليه الزعامة الدينية في الفكر الامامي بعد استاذة الشيخ الصدوق، توفي سنة ٤١٣هـ. ينظر: علل الشرائع، الشيخ الصدوق ابي جعفر محمد بن علي (ت: ٣٨١ هـ)، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٣م، ص ٥

- (٣٦) فقد اتفقت الامامية على ان النبي عليه الصلاة والسلام نص على امامة سيدنا علي بن ابي طالب عليه السلام، وكما اتفقت الامامية على ان الائمة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم اثني عشر اماما، ينظر: أوائل المقالات في المذاهب المختارات، ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ المفيد، دار الكتاب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ٤٤
- (٣٧) ينظر: مختصر التحفة الاثني عشرية، شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي، المحقق: الشيخ الحافظ غلام محمد بن محي الدين بن عمران الاسلامي، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ص ٢٢
- (٣٨) محمد الحسين آل كاشف الغطاء من فقهاء العراق الشيعة الاثني عشرية، ولد سنة ١٢٩٤هـ في مدينة النجف الاشرف، وسمي بكاشف الغطاء نسبة الى كتابه كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، توفي سنة ١٩٥٤م . ينظر: الدين والاسلام، محمد الحسين كاشف الغطاء، المحقق: محمد جاسم الساعدي، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ج١، ١٢٣٢هـ، ص ٢٤
- (٣٩) ينظر: اصل الشيعة واصولها، محمد الحسين كاشف الغطاء، دار الاضواء للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٣٤ .
- (٤٠) الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل مصطفى الشيبلي(ت: ٢٠٠٦)، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص ٢٣
- (٤١) ينظر: الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، ج١، ١٩٨٩، ص ٣٨
- (٤٢) الكافي، ابي جعفر محمد بن يعقوب الكليني(ت: ٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج١، ط١، ١٣٦٥هـ، ص ٢١٤
- (٤٣) ينظر: اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية، مقاد بن عبد الله السيوري الحلبي، مطبعة شفق، ايران، ١٩٧٦، ص ١٦٥
- (٤٤) محمد رضا المظفر من علماء الشيعة في القرن الرابع عشر الهجري، ولد بالنجف الأشرف سنة ١٣٢٢هـ ويعرف بالمجدد نظراً للأعمال التجديدية التي قام بها على مستوى الدراسات الدينية والقضايا الاجتماعية، توفي سنة ١٣٨٣هـ . ينظر: طبقات اعلام الشيعة(نقيب البشر في القرن الرابع عشر)، آغا بزرك الطهراني(ت: ١٣٨٩ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١٣، ١٩٦٠، ص ٨٥٤
- (٤٥) عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، مكتبة الأمين، النجف الأشرف، ط٢، ١٩٦٨، ص ٢٥. لأنه لو كانت مختلفة في الوجود وهي بحسب الفرض قديمة وواجبة كالذات للزم تعدد واجب الوجود وللزم تعدد القدماء وهذا ما ينافي عقيدة التوحيد. ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٥
- (٤٦) ينظر: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة آل البيت، جعفر السبحاني، المحقق: جعفر الهادي، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف، ١٩٩٣، ص ٦٥
- (٤٧) ينظر: عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، ص ٢٥ وما بعدها
- (٤٨) العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة آل البيت، جعفر السبحاني، ص ٦٦
- (٤٩) سورة الذاريات، الآية ٤٧
- (٥٠) سورة ص، الآية ١٧
- (٥١) سورة المجادلة، الآية ٢٢
- (٥٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ج٢، ص ١٩
- (٥٣) سورة الزمر، الآية ٦٢
- (٥٤) سورة الشورى، الآية ١١
- (٥٥) ينظر: مناقب آل ابي طالب، ابو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب (ت: ٥٨٨هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ج١، ط١، ١٩٥٦، ص ٣٠٩، واولئ المقالات في المذاهب المختارات، الشيخ المفيد، ص ١٣٢.
- (٥٦) ينظر: الشيعة في الاسلام، محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢هـ)، بيت الكاتب للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص ٧٥
- (٥٧) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، ابو جعفر بن محمود الطوسي(ت: ٤٦٠هـ)، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ج١، ط١، ١٩٥٧، ص ٣٢